سمير الصايغ.. في البدء كان حرف الألف

عبيدو باشا

الإثنين 12/05/2014

ما زال سمير الصايغ يعاند ويقاوم أشباح الزمن باستدعاء الأشباح إلى الحاضر الزمني. يشتدّ انطلاق الحركات الحيّة عنده، بحرف واحد. لا يحتاج الباحث والفنان، إلى أكثر من حرف لكي يخوض في دوائر العتمة، بالطريق إلى مصافي النور. بالألف، بحرف الألف، يخوض بالرسم والكتابة في آن، بهدف الإحياء والتصوير. ما زال الفنان يخوض مغامرته المجنونة منذ معرضه "ما لا يكتب وما لايقال" في غاليري جورج الزعني "أليسار" في سبعينات القرن الماضي. لا حدّ له سوى الخطر. ذلك أن الصايغ في حروفياته، يزور شجرة الحروف، بالرؤية لا بالمشاهدة. زيارة إلى الجذور، زيارة حتى الجذور. بالألف، وحدها، يعبّر عن الرؤية الثاقبة للحرف العربي، إذ يحوّله إلى جسد بلا وجه، ثم يلتحق باتساعه. إنها لحظة سحرية كاملة عنده، تتكرّر في شكل الألف غير المحدود، بالخطّ الكوفي، لحظة سحرية يتوّجها انطباع بحرية غير محدودة.

تزودُ بالكثير من معارف الصنع، لدى الصايغ القليل الإنتاج، النادر العرض. تأتي اليد هنا، بطواعيتها، لتقدم له دعمها وهو يداخل حضوره الشخصي، في منابع النور الداخلية للحرف. عمل لا نزق كعمل الفكر. عمل لا نزق، لأنه يقوم على الفكر، لا على الارتجال. ذلك أن ما ينطوي عليه العرض، هو بأهمية مادة العرض القائم الآن على جدران "غاليري أجيال"– الحمرا –بيروت.

ما ينطوي العرض عليه، بالغ الدلالة. لأن العمل على الخط العربي، يتّخذ الإحساس المسبق، شكلاً من أشكال تسلسل الحركات المشربة بالفضاء. فضاء اليد، فضاء الجسد، فضاء الروح. فضاءات تزوّد الخط القاسي، بالورق والحبر والريش. لا ترى العين الأخير، وهو يطير بالخط الكوفي الأول، بتجلياته على صفحات المصاحف الأولى. كتابة شافية بالمعنى هذا. تشفي الكتابة هنا من الكتابة العادية، تشفي من الاجترار، وهي تعيد الأمر إلى نظام الوحدة بعلم الرياضيات. الخطّ الكوفي المصحفي في معرض الألف، لا الخطّ الكوفي المربع أو الشطرنجي ولا الخطّ الكوفي المظفور. خطّ بحضور يعود إلى العام 250 ميلادي. يختار الصايغ الخطّ الكوفي، لا عن عبث. يختاره، لأن الجمال والكمال، ارتبطا بالخطّ العربي، بالخطّ الكوفي بالتحديد. فن لا ينتهي بالاختفاء بعلمي الهندسة والرياضيات، كفن العمارة والموسيقى، ما دام يقوم على تحوّلاتهما فيه.

الخط مرسوم عند سمير الصايغ. تجسيد للفن والحساب بالفن، قبل نشوء الفنون البصرية الحديثة. أسّس المقاييس ثابتة في التناسب، بين الحرف وأجزائه، لا الحرف والكلمة، لأن الصايغ، لا يجد الحرف بالكلمة ولا يجد الحرف باللغة "لأن على الخطّ أن يخون اللغة في الظاهر ليتوحّد معها في الباطن"، (ص 10 من الكتاب الصادر والموزّع في المعرض). المدهش أن الصايغ لا يلتزم نظاماً صارماً، يجب الالتزام به، لتحديد صحّة ودقة وانتظام الحرف بضرورات الاستخدام، حين يمنح نفسه لحظاتها القصوى بالإيماء، ما يخوّله تحويل الخطّ الجامد، الصلب، إلى خطّ لين، من قوة قدرته على إخضاع الحرف بالاستخدام.

المضامين التشكلية في لوحته، ناتجة عن العلاقة البنيوية، بين الحرف والمحرِّف، أي كاتب الحرف، بالشعر. ذلك أن الفنان، في معرضه الجديد، يمجّد علاقته بالشعر. وهي علاقة قديمة، تعود إلى زمن مجلة "شعر" ذات التأثيرات الحداثية على مجمل تجربة القصيدة العربية، المجدّدة والجديدة. بالشعر، تقفز خصوصية الخط الكوفي، فوق الإحالات الجاهزة والأنساق الجمالية المثارة من الخطوط العربية اللينة الأخرى. المدهش أنه لا تكرار ولا نمطية، في اللوحات الأشبه بالإيماءات اللغوية، ما يؤكد حضور نظرة فن الرسم بكتابة الخط. لا تجريد فقط.

الحرف بشر في اللوحة، وهو يثبت قواعد المعركة مع الواقع. تستجيب المادة في اللوحة، لمتطلبات الفنان الذهنية والجمالية، وهي متطلبات بالقيمة نفسها، عبر بابين بمصاريع عديدة. ملاحقة الحرف والاكتشاف وفتح الداخل على الخارج والخارج على الداخل في شيء أقرب إلى المعجزة الصغيرة. إنسان حداثي الصايغ، يعيش في عصر المادة البدائي، حيث حفّز الإنسان حذق المادة وأفعالها. من ينظر في اللوحات، لا من ينظر إليها، يدرك أن الصايغ إذ يشرع في الرسم ينظر إلى ما يرسمه من دون أن يراه، ولا يكتشف إلا في وقت لاحق، ما استخلصته يده، من الفضاء، فور مرور النسيان عليه. لا تؤدي الأنظمة الشكلية باللوحة إلا إلى "التضام" بحسب جماعة بورباكي الفرنسية للرياضيات. هنا، انتظام المرئي في الهيئات.

للألف حروف كثيرة، لأن فن الرسم عند سمير الصايغ، والشعر، مفتاحان، يفتحان النظرة على الفضاء الحاضر/الغائب والفضاء الغائب الحاضر غير المرئيين. لا المربّع بطل ولا المستطيل ولا الدائرة. البطل هو الفنان. الواقعي دعامة الواقع الذهني في واحد من أهم معارض بيروت منذ أزمنة بعيدة.

©جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2018